العنوان: حتى يغيروا ما بأنفسهم.
الكاتب: جودت سعيد.
مطبعة دار الفكر المعاصر
الطبعة السابعة سنة1993

قراءة في كتاب جودت سعيد:

"حتى يغيروا ما بأنفسهم"

يقول الله تعالى:"ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال:53).

اهتم جودت سعيد في كتاباته بالبحث في مشاكل العالم الاسلامي و الأسباب التي أدت الى تدهور الأوضاع و تدني مستوى الوعي لدى العقل المسلم و اقتراح الحلول المناسبة. كما أنه شديد الحرص على اعادة الحياة للكلمات و المفاهيم القرآنية كمصطلح التغيير و السنن...
في كتابه "حتى يغيروا ما بأنفسهم" يرى الكاتب أن عملية التغيير تنطلق من أسس فكرية اذ لا تتأتى الا بعد دراسة موضوعية تشمل اطلاعا واسعا وفقها للعالم و تغيراته تنتهي الى ايجاد أجوبة دقيقة و عملية على الأسئلة و المشاكل التي تحير عقل المسلم كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه و عقيدته و موانع اعطاء العقيدة ثمراتها. و هو المنهج الذي اتبعه اقبال و المودودي و سيد قطب في دراساتهم مما جعلها تحظى بالتقدير اذ كانت مميزة.

-ما هو التغيير؟ :
التغيير في نظر الكاتب هو كلمة عريقة في قرآنيتها و تعني ازالة ووضع و يرى الأستاذ أن هذا المعنى يوحي بأنه ما فسد يمكن اصلاحه مع أن التغيير بعد التشكيل صعب. تغيير ما بالأنفس هو وظيفة البشر بينما تغيير ما بالأقوام الذي يمثل نتائج تغيير ما بالأنفس هو من الله. بينما السنن الاجتماعية ثابتة ف "لن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا".

-كيف يحدث التغيير؟ :
تغيير الواقع في رؤية الكاتب لا تتم الا بتغيير ما بالأنفس حيث يؤكد على أن كثير مما في أنفسنا يعطي حق البقاء و الاستمرار لواقعنا. حيث أن القرآن الكريم يفسر ما يحل بالانسان بالظلم الذي ينزله الانسان بنفسه. من هذا المنطلق يمكن لنا أن نعتبر أن المشاكل خاضعة لقوانين و مسببات يمكننا السيطرة عليها و تسخيرها عكس ما اذا كنا نرى أن هذه المشاكل لا يوجد لها تفسير و غامضة الأسباب فنكون بذلك ننتظر المهدي و أشراط الساعة كي يأتيا بالحل.
يضرب الكاتب مثلا على ذلك المريض الذي يستسلم و لا يبحث عن أسباب مرضه و عن آخر يطلب من الطبيب أن يشخص له الأسباب التي هي وراء حالته تلك و من ثم يصف له العلاج المناسب. كما شبه الرسول صلى الله عليه و سلم وحدة الأمة تارة بالبنيان المرصوص و تارة أخرى بأصحاب السفينة، سعيا منه عليه السلام الى تقريب المعنى للأذهان فما أصاب هذا يصيب ذاك.
فعندما نعلم أن مشاكلنا خاضعة لسنن يمكن كشفها سوف يكون سلوكنا ايجابيا في الاقبال على العمل بجد لأننا واثقين أنه بأمكاننا حلها. و لا يمكن أبدا التغيير بالعنف فلابد من الاقناع لأن قانون النفس الانسانية يقوم على الاقتناع لا الاكراه أو العنف.

-سنة التغيير في القرآن :
يرى الكاتب أنّ سنة التغيير في القرآن سنّة عامة تنطبق على كل البشر و لا تستثني المسلمين بدليل أن كلمة قوم نكرة تدل على العموم فالتغيير يستلزم أن ننظر الى المشكلة كمشكلة مجتمع لا كمشكلة دين أي مشكلة مسلمين لا مشكلة اسلام حيث أننا نحتاج لأن نغير ما بأنفس المسلمين

من النظرات الخاطئة عن الاسلام. و يرى الكاتب أيضا أن سنة التغيير سنة مجتمع لا سنة فرد فهي تحتاج الى مجتمع يطبق عليها كي يؤتي النتائج المرجوة و هذا يحتاج الى وجود فئة من العقلاء تبحث في مشاكله و حلولها.

يضيف الكاتب أيضا أن سنة التغيير سنة دنيوية لا أخروية حيث أن المحاسبة في الدنيا تكون جماعية عكس الآخرة حيث "لا تزر وازرة وزر أخرى"، أما المسؤولية الجماعية: " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و اعلموا أن الله شديد العقاب"(الأنفال25) حيث أنه تنزل المصيبة أو تحل النعمة بالأفكار السائدة في المجتمع فقد يسعد أفراد مقصرون في المجتمع السليم و العكس صحيح.

-الترتيب في التغييرين و مجال كل منهما :

يأتي تغيير الناس لما بأنفسهم أولا ثم يتبعه تغيير الله لما بالقوم. من هنا يمكن أن ندرك أثر البشر و دورهم في صناعة أحداث التاريخ و مسؤوليتهم في ذلك حيث يقول الله تعالى "وما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون" (النحل:33)

يرى الكاتب ان مجال تغيير الله يكون في النعمة التي تشمل الصحة، المرض، الغنى، المودة...و مجال تغيير الأقوام علقها الله بما في الأنفس و تشمل الأنفس الأفكار، الظنون و المفاهيم...و معرفة الانسان لهذا تمكنه من السيطرة على صنع التاريخ و توجيهه حيث أن ابن خلدون أدرك أهمية ذكر أسباب ازدهار و سقوط الأمم حين اعتبرها الهدف الأساسي من رواية التاريخ.

اهتم القرآن الكريم بموضوع التعامل مع الأنفس لتغيير ما بها حيث بين أن عمل الله تعالى يشمل :"و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها" و عمل الانسان :" قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها" اضافة الى " حتى يغيروا ما بأنفسهم". هذا يوحي بأنه يمكن أن توضع في النفس الأفكار ابتداء كما يمكن أن يرفع ما فيها من مفاهيم و يوضع أخرى و هذا هو المهم في عملية التغيير.

-ما بالقوم نتيجة لما بأنفسهم:

"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم و جعلنا قلوبهم قاسية"(المائدة:13) هذا يوضح أن الاستخفاف بالميثاق هو شيء أحدثوه في أنفسهم أدى الى نتيجة أن جعل الله قلوبهم قاسية.

الانسان مسؤول عن أعماله بما يضع في نفسه من أفكار حيث يظهر أثر ما بالنفس و لو كان وهما لذا فعلينا أن نتخلص من الرؤية السطحية للأشياء و أن نجتهد في ادراك الأمور على وجهها الصحيح. حيث أنه يمكن أن يترسخ في النفس أفكار خاطئة تعمل عملها في اتخاذ القرارات في اللحظات الحرجة.

كان الالحاح في القرآن لينظر الانسان الى سنن الذين خلوا من قبل حيث تعتبر حسب نهج القرآن دعما للبشر و مساعدا لهم في الابتعاد عن الوقوع في نفس الخطأ. اذا لم يتّعظ الناس من التاريخ يكونون معرضين الى دفع ثمن جهلهم في الدنيا و معرضين لخسارة النفس في الآخرة حين يقولون :"لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير"(الملك:10) فما يحدث للقوم مرتبط بما في أنفسهم.

-كيف يمكن أن نفسر حال المسلمين اليوم في ضمن قراءتنا للتاريخ؟ :

و لديهم أعظم حقيقة في الوجود "القرآن". يرجع الأستاذ جودت اللوم الى المسلمين أنفسهم و ذلك تماما مثلما أصاب اليهود و النصارى و هم يتلون الثوراة و الانجيل، و ذلك حين فقد المسلمون الاستفادة من ذخائر القرآن و السنة لفقدهم العلم الذي هو نتيجة لفتح البصر و السمع و الفؤاد و اعمال العقل. و ما اغلاق باب الاجتهاد لقرون طويلة و احلال التقليد مكانه الا دليل على ذلك، حيث أصبح في العالم الاسلامي في رعب من اعمال الفكر و العقل الذي هو مفتاح التبصّر: " قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا و من اتبعني و سبحان الله و ما أنا من المشركين"(يوسف.108).

شغل العقل و السنن مساحة بارزة من القرآن الكريم و لا شكّ أن في ذلك حكمة حتى لا يفقد العقل قوته في ادراك سنن الحوادث و الاعتبار منها. كما اعتبر الله تعالى الذين عطلوا عقولهم كالأنعام بل هم أضل.

-ماسبب تعطيل عقل الانسان؟ :

يرى الأستاذ جودت أن المصدر الأساسي في ذلك هو العقيدة العبثية في الوجود و الكون :"أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم الينا لا ترجعون"(المؤمنون:115). حيث يعتقد الكاتب أن هذه العقيدة تمنع رؤية النظام و السنن في الكون و أننا قد توارثناها على مر القرون ان لم يكن باسمها فبمحتواها و هي التي ساهمت في شلل الفكر و العمل في العالم الاسلامي.

من خلال القرآن الكريم يستخلص الكاتب الآفات التي تتولد عن هذه العقيدة التي منها:

*الغفلة: "لهم قلوب لا يفقهون بها.....أولئك هم الغافلون"(الأعراف:179)

*الاعراض عن آيات الله و سننه:" و كأين من آية في السماوات و الأرض يمرون عليها و هم عنها معرضون"(يوسف:105).

*التكذيب :"بل كذبوا بما لم يحيطوا به علما"

*اتباع الهوى : حين يذهب العلم يبرز الهوى،" و من أضلم ممن اتبع هواه بغير هدى من الله"(القصص:50) و يقول تعالى :"و ان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم"(الأنعام:119).

*اتباع الآباء: سلطان الآباء يجب أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه و الا صار وبالا و مصيبة و يظهر ذلك جليا حين يضاف طابع العصمة و القداسة على أعمالهم حيث لا يمكن أن تخضع بعد ذلك لميزان العلم و التصحيح و هذا مناف للصواب. القرآن يدين اتباع الآباء عموما أكثر من مدحه و ذلك لم يكن عبثا و انما لكي يتجنب المسلمون الوقوع في نفس الخطأ.

قال تعالى :" و اذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا".

-المنهج و التطبيق :

***جانب فصل القاعدة عن التطبيق:**

يؤكد الكاتب على الزامية التفريق بين النظرية و التاريخ، بين الاسلام كدين و المسلمين كتطبيق على اعتبار أن النظرية هي القاعدة و التاريخ هو التطبيق. هذا التفريق مهم في مجال تصدينا لبحث مشكلة تخلف المسلمين فلا نظن بعد ذلك أن كشف الخطأ في تطبيق المسلمين هو كشف لخطأ في الاسلام، يظهر ذلك جليا في في كلام الله تعالى عن غزوة أحد و كشف أخطاء المخطئين. يفيدنا هذا النظر كذلك من جانب آخر على تقبل ما عند الآخرين من نظريات صائبة و تجارب ناجحة أيا من كانوا، حيث أن عدم بخس الناس و أشيائهم و العدل مبدآن قرآنيان.

*** جانب تعميم السنة:**

يرى الكاتب أنه من الواجب علينا ادراك أن السنن الاجتماعية تنطبق على جميع البشر دونما استثناء بما في ذلك المسلمين حيث أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدين الاسلامي مادام منزلا من عند الله فهو يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية و غامضة الأسباب دون اعتبار لحالتنا و استعدادنا لحمل هم هذا الدين.

من كل ماسبق يتضح أنه على المسلمين اذا أرادوا أن يغيروا بحالهم نحو الأحسن فيجب أن يكونوا على استعداد لالقاء الضوء على ما بأنفسهم و دراسة الأفكار التي تحملها و جوانب نقصها و تقصيرها بكل موضوعية و ترك القاء اللوم على الآخرين.

Bïa - sara.freesoul@gmail.com